

الباب الأول

في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها

اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما في فلك القمر من الهواء والبحار والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها والمعمورة فيها يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال، مع ما يقاربه من المشرق والمغرب.

وما سواه من الأرض، ليس فيه آدمى لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال وشدة سلطانها على ما سوى الشمال، فإن الشمال بارد يابس، ومغربه بارد رطب، ومشرقه حار يابس، فقابلت حرارة المشرق ببرودة الشمال، وبرودة المغرب ورطوبته، فكان أعدل مواضع الأرض للحيوانات والنبات، فأسكن الله عز وجل فيه بنى آدم رحمة منه وفضلاً.

ثم جعل يأجوج ومأجوج وهما من أولاد آدم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجعل مواضعهم ومسكنهم في آخر بلاد الشمال أرضاً متصلة ببحر الظلمات، طولها ثمانون سنة.

وبين ولد سام وبينهم سد ذى القرنين الذى ذكره الله تعالى في القرآن بين الصدين، بناء من الحديد والنحاس، ويأجوج ومأجوج أمم لا يعلمهم إلا الله تعالى، كثيرة كأمثال الجاهنم، لهم قوة وبأس، يرمون بالشباب، ولهم عدوان كعدوان السباع الضارية، ولا دين لهم فيما يقال، والله أعلم.

وقد بقى من المائة سنة المعمورة عشرون سنة، منها أربع عشرة لآلئواع السودان وبلادهم مما يلى المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتداً على بحر الظلمات^(١)، وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال خمس قبائل، أقربهم غانة، بنيت فى رمالهم الذهب التبر الغاية وهو

(١) يطلق الجغرافيون العرب اسم بحر الظلمات على المحيط الأطلسى بينما يطلقون اسم بحر المحيط على مختلف المحيطات التى تحيط بالأرض من الشرق والشمال.

كثير عندهم^(١)، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدنى، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون فى رمال كالبهار، ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لسته شهور، فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقتهم.

وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً، سبط الشعور، فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة.

وأما قناوة وقُوقُو وملى وتكرور وغدَامَس، فقوم لهم بأس وليس فى أرضهم بركة ولا خير فى أرضهم، ولا دين لهم، ولا عقول.

وأشهرهم قوقو، قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالكرون المحرقة، يرمون بنبل مسمومة بدماء حَيَاتٍ صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات.

والأفاعى وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبألون بسموم الأفاعى ولا الثعابين، إلا بالحية الصفراء التى فى بلادهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم وقسيهم، صغار قصار، رأيتهم فى بلاد المغرب ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذى فى بلادهم، ونبلهم قصار كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد فى القوة، قد شدوه فى نبلهم بلحاء شجر، يصيبون الحدق.

وهم شر نوع فى السودان، وسائر السودان يتفجع بهم فى الخدمة والعمل إلا قوقو فلا خير فيهم إلا فى الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون فى تلك الثقب فتصوت بأصوات عجيبية، فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعى والثعابين

(١) فكرة كون الذهب نبات يبيت فى أرض السودان فكرة شائعة بين عدد من الجغرافيين، ومن بين المتقدمين على أبى حامد فى هذه النظرية ابن الفقيه (أوائل القرن الرابع الهجرى) الذى يقول فى هذا السياق: «ويلاذ غانة يبيت فيها الذهب نباتاً فى الرمل كما يبيت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس (ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٨٧).

فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه كما يشد الحزام، ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمى على الناس أنواع الثعابين والحيات فيعطوه شيئاً حتى يخرج وإن لم يعطوه ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجىء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز مدبوغة دباغة عجبية، الجلد الواحد يكون غليظاً كبيراً ليناً محبباً في لون البنفسج إلى السواد يكون الجلد الواحد عشرين متراً، يتخذ منه الخفاف للملوك، ولا يبل بالماء ولا يبلى ولا يفنى مع لينة ونعومته وطيب رائحته، يباع الجلد الواحد بعشرة دنانير، تبلى خيوط الخف ولا يبلى هو ولا يتقطع فيفسلونه في الحمام بالماء الحار فيعود كأنه جديد، يتوارثه صاحبه عن أبيه عن جده وهو من عجائب الدنيا.

وعندهم حيوان يقال له اللمط مثل الثور الكبير، له قرنان كالرماح تطول بطول بدنه، ممدودة على ظهره، إذا طعن بها الحيوان أهلكه في الحال، عريض العنق، يتخذ من جلدة تراس يقال لها الدرق اللمطية^(١) مضافة إلى ذلك الحيوان، يكون ثلاثة أذرع، وهي خفيفة لينة لا ينفذها النشاب، ولا يؤثر فيها السيف تكون بيضاء كالقراطيس، وهي من أحسن التراس مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه.

ومن أنواع السودان زيلع^(٢)، وهم أعف أهل السودان، مسلمون يصومون ويصلون ويحججون إلى مكة كل سنة مشاة، وبلاد السودان إلى الزنج والبجاه مسيرة أربع عشرة سنة، يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفار.

ويبقى من المائة سنة العمران ست سنين بين الحبشة والهند والصين والفرس والترك والنخز والصفالية والروم والإفرنج والنامش واللكز والبالشان والعرب وأهل اليمن والعراق والشام ومصر وأندلس إلى رومية العظمى وسائر أهل الكفار، وإنما المسلمون بينهم جزء من ألف جزء.

وعند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان، له نصف رأس

(١) مدينة لمطة: لدى ابن سعيد أنها تقع في غربي كزولة، التي تفصل بينها وبين المحيط الأطلسي، ولدى ياقوت: لمطة: أرض لقييلة من البربر بأقصى المغرب، يقال للأرض وللقييلة معاً: لمطة.

(٢) ثغر على الشاطئ الإفريقي لخليج عدن.

ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة، يقال لهم وبار، هم من ولد إرم بن سام أخو عاد
 وثمود، وليس لهم عقول، يعيشون في الآجام وفي بلاد الشحر على شاطئ بحر الهند،
 والعرب تسميهم النسناس، ويصطادونهم ويأكلونهم، وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون
 ويسمون بأسماء العرب، ويقولون الأشعار، ورأيت في «تاريخ صنعاء» أن تاجراً سافر في
 بلادهم فرآهم يشبون على رجل واحدة ويصعدون الشجر ويفرون خوفاً من الكلاب أن
 تأخذهم، وسمع واحداً منهم يقول: [رجز]:

فررت من خوف السراة شدًا
 إذ لم أجِد من الفرار بدا
 قد كنت قدما في زمانى جلدا
 فها أنا اليوم ضعيف جداً^(١)
 وقد ذكرهم الأعمى في شعره حيث يقول: [مخلع البسيط]:
 ألم تروا إرمًا وعادا
 أفناهم الليل والنهارُ
 واهلكت بعدهم ثمود
 بما جنى فيهم قدارُ
 وحلَّ بالحى من جديس
 يوم من الشر مستطارُ
 وجاسم بعدها وطسم
 قد أرحشت منهم الديار
 ومسخت بعدهم وبار
 فلا صحرار ولا وبار

وفي بلاد السودان أمة لا رموس لهم ذكرهم الشعبي في كتاب «سير الملوك».

وذكر أن في فيافي بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يكون بينهم ذكر، ولا
 يعيش في أرضهم وأن أولئك النساء يدخلن في ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل

امرأة بتكا ولا تلد ذكراً البتة، وإن تبعاً ذا المنار وصل إليهن لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين والله أعلم، وأن ولده إفريقيش بن تبع ذا المنار هو الذي بنى مدينة إفريقية وسماها باسم نفسه، وأن والده تبع وصل إلى وادي السبت وهو واد بالمغرب يجرى فيه الرمل كما يجرى السيل لا يمكن حيوان أن يدخل فيه إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه، فعبر إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال والله أعلم.

وأولئك الأمة الذين لا رهوس لهم، أعينهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، وهم أمم كثيرة كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم، ولا عقول لهم، والله أعلم.

والمملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذي لا خوف معه في بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكم مثل الطب والنجوم والهندسة والصناعات العجيبة التي لا يقدر أحد سواهم على أمثالها.

وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العود وشجر الكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل، وجوز بوا^(١)، والسنبل والدارصيني، والقرفة، والسليخة، وقاقلة، وكبابة، وبسياسة، وأنواع العقاقير والأدوية.

وعندهم حيوان المسك الفائق وهو حيوان كالغزال يجمع المسك في سرته، وعندهم حيوان الزباد، وهو نوع من الطيب، وذلك الحيوان كالسنور يحمل إلى بلد المغرب وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقطران الأسود ثخيناً، يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب، بحيث يكون أركى من المسك، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها في جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه السلام من الجنة فيما يقال.

[بلاد الصين]

وأما بلاد الصين: فهي كبيرة، وملوكها أهل عدل وإنصاف وهم أكثر من أهل الهند أضعافاً مضاعفة، وفي أرضهم نعم كثيرة، ولهم أنواع من الصنائع لا يهتدى إليها غيرهم

(١) جوز بوا: هو جوز الهند، يؤتى به من بلاد الهند (ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية جا ص.

كالفخار الصيني والديباج وغير ذلك وهم يعبدون الأصنام كأهل الهند، لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج من الحيوان كاللبن والعسل، ويحرمون على المسلمين ذبح البقر، ويبيحون لهم ما سوى ذلك.

وإذ مرض منهم أحد أعطى للقصاب مالاً بقدر ما يرضيه أياماً ويقول أعتق الحيوان من الذبح أياماً معدودة على قدر ما يرضيه.

وإذا مات بينهم غريب وله أحمال من الأموال لا يتعرضون لتركته ولا لشيء من ماله وأولاده ونسائه، ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ولا يؤخذ منهم أعشار في بيع وشراء ولا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها، ولكن ذلك للحكمة الإلهية وذلك أن النبي ﷺ قال: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ»^(١) والسجن موضع الضيق والخوف، ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق في حق المؤمن السجن في الدنيا.

وقال ﷺ: «الدنيا جنة الكافر» والجنة موضع الرخاء والنعمة والأمن والعدل والسياسة والطيب وأنواع الطيبات والحمد لله الذي جعل جور ولادة المسلمين من معجزات سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما الجان فإني قرأت في بعض الكتب المتقدمة الماثورة عن العلماء أن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم، وخلق من مارجها خلقاً سماه جانا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾ (سورة الحجر: ٢٧) وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (سورة الرحمن: ١٥) ثم خلق من الجن زوجته سماها جنيّة؛ فتغشاها زوجها الجان فحملت فأقامت ما شاء الله فلما أثقلت وضعت إحدى وثلاثين بيضة، فانفلقت منها بيضة واحدة فخرج منها حيوان على خلاف الجن في الخلق والشكل، فقالت لها الجنيّة: من أنت؟ فقالت: أنا قطربة أم القطارب، فقالت لها الجنيّة: يا قطربة؟ فقالت: أنا قطربة، سميعا دعوت، فمن يعنى بأمرك؟ قالت الجنيّة: يا قطربة لماذا خلقت؟ قالت: قطربة: خلقت لأحضن هذا البيض وأفرقه في مظانه، قالت الجنيّة: فدونك.

(١) أخرجه صاحب الكتر برقم ٦٠٨١.

قال: فجلست قطربة على ذلك البيض شهراً واحداً، ففقت منها بيضة واحدة فخرج منها ستون ألف إبليس وستون ألف إبليسة ذكوراً وإناثاً فيما يقال والله أعلم. إبليس اللعين واحد منهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من السعالى وستون ألفاً من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الغيلان ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الهوام ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الدهانش ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الغمامية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من العفاريت ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من السحاية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الدخانية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من النارية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من النجاسية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الذهب ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الريحية ومثلهم من إناثهم، وفقت بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الزوابعة ومثلهم من إناثهم، وهم الذين يدورون بالريح والغبار فى البرارى كما تدور الرحى. ففرقت قطربة كل جنس من هؤلاء الجن حيث أراد الله تعالى من القفار والجبال والرمال والغيران والغياض والبحار والجزائر والظلمات والهواء ومواضع النجاسات ومواضع الدماء ومواضع القبور، وقالت لهم: اكثروا واعمروا فكل واحد منكم يغشى روجه فتضع له إحدى وثلاثين بيضة فى كل بيضة ستون ألف ذكر وستون ألف أنثى وهذا ما لا يحصيه إلا الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (سورة الاعراف: ١٧٩).

ولولا أن الله سبحانه وتعالى وكل بكل آدمى ملائكة يحفظونه من الجن لاهلكت الجن ولد آدم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الرعد: ١١) فله الحمد على فضله ونعمه، وكم فى الأرض من أنواع المخلوقات لم يسمع بذكرها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٨).

واعلم أن الأرض والجبال والبحار التي قد أحاط بها جبل قاف وما فيها من عجائب المخلوقات في فلك القمر الذي هو أصغر الأفلاك كالنقطة في الدائرة العظيمة التي لا تبين فيها، وهذه الأرض بما فيها من الهواء والفلك محيط بها من كل جانب بلا دعامة تحتها ولا علاقة من فوقها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (سورة فاطر: ٤١) وفلك القمر في الفلك الثاني كالأرض في فلك الدنيا، وكل فلك في الذي فوقه كالأرض في فلك القمر، والسموات السبع في الكرسي قال ﷺ كحلقة أقيت في فلاة من الأرض، قال الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥) والكرسي عند العرش كحلقة في فلاة من الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة التوبة: ١٢٩) وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، يرويه عن أبيه في صفة العرش أن العرش له ثلاثمائة ألف قائمة، وستون ألف قائمة دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، بين كل قائمتين ثلاثمائة ألف وستون ألف سنة، علو كل قائمة ألف ألف طبقة، مثل ما بين العرش إلى آخر العالم، وهذا ما لا يحصيه إلا الله عز وجل.

وخلق الله عز وجل حية وقد أحاطت بالعرش^(١) والتقى رأسها وذنبها، ولها من الأجنحة عدد لا يعلمه إلا الله عز وجل، على كل جناح من أجنحتها من الملائكة المقربين ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، في يد كل ملك منهم حربة من نور لا يعلم عظمها إلا الله تعالى، لو كشف الحجاب عن نور حربة ملك منهم لأحرق نورها من دونهم، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأكبر سلطانه.

والأمر أعظم والسلطان أكبر مما سمعناه أو توهمناه، والله أعلم بكل شيء وهو على كل شيء قدير، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٨) وقال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى في ناحية المغرب أرضاً للشمس فيها مسيرة ثلاثين يوماً، قيل: يا رسول الله، هل يسكنها أحد من بنى آدم؟ قال: يسكنها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم قط، قيل: فهل يدخلهم إبليس لعنه الله؟ قال: ما يعلمون أن الله تعالى خلق إبليس قط.

فتفكر أيها العبد الضعيف في هذه الأرض التي هي أعظم من السموات السبع مرات

(١) هذا من الإسرائيليات التي لا يصدقها العقل ولا تستقيم مع الفكر الإسلامي القويم.

وما فيها من عجائب المخلوقات، فكيف في غيرها من الجهات، فكيف قوائم العرش الذى دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، كم داخل كل قائمة من العالم ولهذا قال ﷺ : «تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله» لان التفكير فى المخلوقات من أجل العبادات والتفكير فى الله تعالى يخاف على المتفكر أكبر الضلالات، لانه تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، جعلنا الله وإياكم من الفائزين الآمنين المستبشرين المطمئنين، إنه أرحم الراحمين.